المحاضرة 01: ثورة اللسانيات

إعداد الأستاذة: سعيدة حمداوي

الفئة المستهدفة: طلبة السنة الأولى ماستر، تخصص: نقد حديث ومعاصر

الأهداف:

أن يتعرف الطالب على الأرضية اللسانية التي أسست للدراسات السردية على تنوع مرجعياتها

الملخص:

توضح هذه المحاضرة جهود اللساني فرديناند دي سوسير في التحول من الدراسات التاريخية إلى وصف المكونات الداخلية للغة والتي ساعدت على ظهور البينوية بوصفه منهجا للدراسة والتحليل.

تشكل اللغة في فكر فرديناند دي سوسير نسقا من العلامات التي تهدف إلى توصيل الأفكار لهذا تجد اللسانيات مكانها ضمن علم عام يسميه علم أكثر عمومية يسميه "علم السيميولوجيا" وله مهمة التعامل مع نوع معين من العلامات، العلامات اللفظية. أول وأهم تمييز يقدمه سوسير هو ذلك بين اللغة والكلام؛ أي بين مجموعة القواعد البنيوية للغة وتطبيقها التاريخي والاجتماعي، تطبيق كل من الفرد والمجتمع؛ وبعبارة أخرى، هناك من ناحية بنية مجردة واعتباطية واصطلاحية، ومن ناحية أخرى هناك فعل لغوي ملموس ومادي ومشروط. وفقا لسوسير، فإن اللغة التي تُفهم على أنها نظام نحوي ومعجمي موجودة في مجملها فقط في المجتمع، في حين أن الكلام هو تجسيد النظام في الأفعال اللغوية التي يقوم

بها الأفراد. من هنا، الهدف من اللسانيات البنيوية هو فحص اللغة بوصفها نظاما من القواعد المتضمنة في اللغة نفسها والتي تحدد نطاق الإمكانيات التعبيرية للأفراد.

إن العلامة اللغوية عند سوسير لا تربط "الشيء" بـ "الاسم"، ولكنها تربط المفهوم بصورة صوتية. وفي السياق ذاته، ينتقد الدراسات اللغوية السابقة لاختيارها تفضيل البحث في البعد التطوري للغة، واختيار المنهج التاريخي في التحليل. على العكس من ذلك، اختار سوسير تفضيل النهج المتزامن، وغالبا ما يستخدم استعارة الشطرنج لتجسيد دراسة اللغة: تماما كما في لعبة الشطرنج، فإن الاختلاف في موضع القطعة الواحدة يحدد التغيير في القطعة بأكملها. النظام وفهمه، يصبح من غير المجدي تماما معرفة كيف وصلنا إلى تلك النقطة المحددة في اللعبة، لذلك في اللغة، يعد التزامن وأصل الكلمة حقيقتين متميزتين ومستقلتين تماما ولا يلعبان أي دور في التفاهم المتبادل. ومن ثم تصبح اللغة مجموعة من القواعد ذات منظور معادٍ للذاتية ومعادي للإنسانية.

إلى جانب التناقضات بين اللغة/الكلام، والتزامن/التعاقب نجد أطروحات أساسية أخرى مهمة في اللسانيات، مثل اقتران الدال (الوسيلة المستخدمة للتعبير، والشكل الصوتي) والمدلول (ما يتم التعبير عنه بالعلامة، والمفهوم)، ولا يمكن لأحدهما أن يوجد بدون الآخر – وهذا التعريف لسوسير (الدال/المدلول) ظل معيارا للسيميائية. أما الأطروحة الأخرى هي اعتباطية العلامة؛ أي أن العلامات اعتباطية لأن علاقتها غير محفزة ومبنية على اتفاقية؛ تم إثبات التعسف من خلال حقيقة أن اللغات المختلفة تستخدم دوالات مختلفة (أشكال صوتية) للتعبير عن المعنى نفسه؛ وبالتالي فإن التعسف يتمثل في حقيقة أن العلامة لا يتم تحديدها من خلال علاقات السبب والنتيجة .

إن إحدى أهم النتائج المترتبة على التغيير في النهج المتبع في اللسانيات الذي افترضه سوسير هو إمكانية فتحه لإضفاء الطابع الرسمي على اللغة ونمذجتها، من خلال التحليلات

الرياضية الكمية؛ يأخذ هذا الجانب أهمية تأسيسية في البنيوية وهو أساس التفكير الأنثروبولوجي لليفي شتراوس. ومع سوسير تأسست بوادر اللسانيات البنيوية.

وفي السنوات التي أعقبت تفكير العالم الجنيفي مباشرة، وتحت تأثيره، جرت أبحاث مدرسة براغ وأبرز دعاتها: رومان جاكوبسون حيث ولدت مدرسة براغ عام 1926 بمبادرة من اثنين من اللغويين التشيكيين، ماثيسيوس وترانكا، وسرعان ما توسعت لتشمل علماء آخرين لامعين مثل تروبيكوي (1890-1938)وكارسيفسكي.

يتم التركيز إلى جانب مفهوم "النظام" على مفهوم "الوظيفة" واعتبار أن اللغة ليست مجرد نظام من وسائل التعبير ولكنها على وجه التحديد نظام من وسائل التعبير المناسبة لغرض ما: وبالتالي يجب أن تشكل بقدر ما توجد "لغات" بقدر ما توجد وظائف يجب على اللغة أن تتعامل معها. من هنا، لا تقتصر أصالة مدرسة براغ على هذاالتوجه، فعلى النقيض من الإملاء السوسوري، يقول علماء براغ أنه من غير الممكن وضع حدود واضحة بين النهجين المتزامن وغير المتزامن، ومن ناحية أخرى، فإن التغييرات لها طابع هيكلي، ولا يمكن إنكاره، من ناحية أخرى، أن الأنظمة تتميز بالديناميكية .

أما في مجال اللسانيات البنيوية، فالابتكار الأكثر أصالة جاء به ياكوبسون فيما يتعلق بعلم السيميولوجيا عند سوسير هو الاهتمام الشديد الذي أولي لنموذج نظرية الاتصال الذي في رأي الباحث التشيكي، جزء لا يتجزأ من بنية العلامة اللغوية: بالنسبة لجاكوبسون ليس للغة غرض وصف الأشياء فحسب، بل تتميز بوظائف أخرى – مرجعية، وعاطفية، وصريحة، ولغوية، وواصفة، وشعرية – فيما يتعلق بالاهتمام الموجه إلى عنصر أو آخر من عناصر الاتصال .

يرى جاكوبسون أن جميع العمليات اللغوية هي نتيجة لتركيب عوامل متعددة هي: "المرسل"، "المرسل إليه"، "الرسالة"، "الرمز"، "السياق أو المرجع"، "القناة" وعلى أساس هذه العناصر تتعدد وظائف اللغة، وتنوع الرسائل يعتمد على اختلاف الترتيب الهرمي بينها . وبالتالي، يمكن تحديد البنية اللفظية للرسالة في المقام الأول من خلال الوظيفة السائدة .

وخلاصة القول أن مدرسة براغ – التي سيكون لها من خلال جاكبسون تأثير حاسم على التفكير البنيوي – طورت مفهوم البنية واعتبرت دور الوعي باطلا تماما في تحليل الظواهر اللغوية، بحكم أن النشاط اللغوي مبني من القواعد اللاواعية التي يتجاهلها المتحدثون الأفراد. ويمتد البحث إلى تحليل مورفولوجية المجالات اللغوية الأكثر تعقيدًا وتعقيدا مثل الأدب والشعر والقصص والحكايات الخرافية .

في حين، توجه كلود ليفي شتراوس إلى اللسانيات البنيوية في أوائل الأربعينيات في الولايات المتحدة، حيث يلتقي برومان جاكوبسون الذي يوجه انتباه عالم الأنثروبولوجيا إلى دراسات سوسير ومدرسة براغ، ولا سيما تأملات تروبيكوي فيما يتعلق بعلم الأصوات. هذا اللقاء لليفي شتراوس، يعد حاسما، حيث إنه مندهش من حقيقة أن اللسانيات قد عبرت وشكلت بعض البديهيات التي كانت في مجاله لا تزال مشوشة وغير واضحة، وأصبح بالنسبة له نوعا من المثالية المعرفية. لهذا فالعلم لكي يكون كذلك يجب أن يكون "علم بنيات" ومن خلال توجيه نقد شرس للتيارات "الإنسانية"، مثل الوجودية أو التاريخية، يصل إلى تفصيل الأنثروبولوجيا البنيوية التي من أجلها من الممكن إرجاع كل واقع إلى العلاقات الوظيفية والقوانين التي تؤسس العلاقات، ولهذا الغرض، فإن فكرة البنية التي طورتها اللسانيات تكتسب أهمية تأسيسية لأنها تسمح لنا بالتعبير حتى في مجال الظواهر الإنسانية، عن العلاقات بمصطلحات منطقية رياضية.

كشف ليفي شتراوس في كتابه "الأنثروبولوجيا الهيكلية" الذي نشره في عام 1958، أن الحقائق الثقافية والاجتماعية كما يحدث مع الصوتيات تأخذ المعنى فقط ضمن نظام من القواعد والعلاقات المتزامنة التي تربط بينها، وبهذا المعنى، يفقد التحليل من الناحية التطورية والتاريخية أهميته. وفي الدراسات الأنثروبولوجية التي تميزه يشير ليفي شتراوس في قواعد العلاقات إلى نوع من المصفوفة اللاواعية بداهة يمكن صياغتها بلغة خوارزمية، إنه نوع من اللاوعي الجماعي الذي يتكون من سلسلة من الخوارزميات والأنظمة التوافقية. ذلك أن رموز القواعد التي تحدد الطريقة التي يبني بها الرجال والمجتمعات ثقافتهم الخاصة .هذه البنية متطابقة في كل من الثقافات "البدائية" و"الحديثة" ويعرفها ليفي شتراوس بأنها "بنية الروح"، حيث يكون للمصطلح الأول قيمة وجودية في عالم الأنثروبولوجيا الفرنسي بينما يحدد الثاني مجموعة الهياكل الثابتة والقواعد الرسمية التي تحدد عمل المجتمع والأفراد .

وفي المجلدات الأربعة من كتاب "الأساطير" (1964-1971)، قام ليفي شتراوس بتحليل الأساطير – الوحدات المكونة العظيمة للأسطورة – بالطريقة نفسها مثل الصوتيات، مع لفت الانتباه إلى علاقات الارتباط بينهما. من هنا، يتيح لنا تحليل هذه العلاقات فهم كيف لا يمكن تصور معناها إلا بفضل الأخيرة. بهذه الطريقة تصبح القراءة "الرسمية" ممكنة، مما يسمح للباحث إثبات تنوع الأساطير نفسها في الإصدارات المختلفة للحكاية الأسطورية. وإذا كان خلق الحكايات الأسطورية المختلفة قد يبدو في قراءة سطحية نتيجة للصدفة، فإن التحليل البنيوي يسمح لنا في الواقع بإظهار الأسباب العميقة للتطورات السردية المتنوعة، وإظهار عملية التجميع وإعادة التجميع الذي يتبع قواعد متماسكة .

المراجع:

فرديناند دي سوسير، علم اللغة العام، تر/ يوئيل يوسف عزيز، ط3، دار الآفاق العربية، بغداد، 1985.

رومان ياكبسون، الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، تر/ علي حاكم صالح، حسن ناظم، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2002.

كلود ليفي شتراوس، الأنثربولوجيا البنيوية، تر/ مصطفى صالح، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1977.

كلود ليفي شتراوس، الأسطورة والمعنى، تر/ شاكر عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986.